

الاستكبار في القرآن الكريم^(١)

دراسة في الطبائع والأنواع

◆ سيما جويني بور^(٢)

◆ سهيلا بيروز فر^(٣)


◆ المترجم: د. محمد فراس الحلباوي^(٤)

■ خلاصة

من البحوث والدراسات المهمة في كلِّ زمان ومكان إدراك ظاهرة الاستكبار وفهمها، ويُعدّ إدراك هذه الظاهرة من لوازم البصيرة الدينيّة والوعي الاجتماعيّ الأهمّ. يسعى هذا المقال لعرض تعريف جامع وشامل لطبيعة الاستكبار، وإعطاء تحليل دقيق له، ودراسة هذه المفردة ودلالاتها. يتطرّق أيضًا هذا المقال إلى أنواع هذه الظاهرة، وتفسيرها، ومعرفة جذورها، واستنباط عواملها، ومعرفة الآثار المترتبة عليها. يستند المقال في دراسته وبحثه إلى المنهج التحليليّ للنصّ، ودراسة الآيات المرتبطة بالاستكبار. كما يشير أيضًا إلى الأرضيّة والعوامل والآثار المرتبطة بهذه الظاهرة الاجتماعيّة المشؤومة بعد دراسة المفردة إلى جانب المفردات المرادفة ومتشابهة الدلالة، ويستنتج أنّ الاستكبار العباديّ هو السبب الرئيس لسائر أقسام الاستكبار. تُعدّ الطبقة المستكبرة، والسلطة العسكريّة، والاقتصاديّة، والاستغناء عن الله، والغفلة عن القدرة الإلهيّة من العوامل الأهمّ لتشكّل ظاهرة الاستكبار.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، علم الدلالة، الاستكبار، الاستضعاف، الكفر، الظلم.

- ١ - فصلية علمية- بحثية: دراسات القرآن والحديث، السنة الثانية عشرة، العدد الأول (المتتابع ٢٣)، خريف وشتاء ٢٠١٨، ص.ص ١٦٩-١٩٨.
- ٢ - دكتوراه في علوم القرآن والحديث من جامعة فردوسي، مشهد، إيران
- ٣ - أستاذ مساعد في قسم علوم القرآن والحديث في جامعة فردوسي، مشهد، إيران.
- ٤ - دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، مدرّس في جامعة دمشق، ترجمان محلف.



Arrogance in the Holy Qur'an⁽¹⁾

Study of Natures, Types

◆ **Dr. Sima Joveinypour**

PhD in Quranic and Hadith Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran.

◆ **Dr. Soheila Pirouzfard**

Assist Professor in the Department of Quranic and Hadith Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran.

◆ **Translated by: Dr. Muhammad Firas Al-Halabawi**

PhD in Persian Language and Literature, Lecturer at Damascus University, Sworn Translator.

■ Abstract

Understanding the phenomenon of the arrogance is a research necessity in every time and place, and is essential for religious insight and social awareness. This article seeks to provide a comprehensive definition of the nature of arrogance, analyzing its dimensions and linguistic connotations, addressing the types of this phenomenon, its roots, the factors that led to its emergence, and its consequences. The article's methodology relies on textual analysis of relevant Qur'anic verses, comparing the term "arrogance" with similar terms of connotation, to conclude that "religious arrogance" is the primary root of all other forms of arrogance. It also demonstrates that the dominance of arrogant classes, the power of military and economic forces, coupled with disregard for Allah and ignorance of His power, constitute the most significant factors in the emergence of this ominous social phenomenon.

Keywords:

The Holy Quran, Semantics, Arrogance, Oppression, Disbelief, Injustice.

1 - Research-Scientific Quarterly: Qur'anic and Hadith Studies, Year 12, Issue 1 (Consecutive No. 23), Autumn/Winter 2018, pp. 169- 198.

مقدمة

وردت مفردة «استكبار» بمشتقاتها ٤٨ مرة في القرآن الكريم. وقد وردت كلمات «عتوّ»، و«علوّ»، و«استنكاف»، و«كفر»، و«ظلم» مقترنة بكلمة استكبار في القرآن، وقد وُضعت مفردات مثل «بغي»، و«بطر»، و«استغناء»، و«طغيان» على قدم المساواة من حيث المعنى مع كلمة استكبار. كما سعى المستكبرون في كل عصر وزمان إلى الهيمنة والفساد في الأرض بشتى الأنواع، واستعبدوا واستضعفوا جماعات كبيرة من البشر. يفترض هذا المقال ارتباطاً وثيقاً بين الاستكبار والرفاه الاقتصادي والقوة. لا يدفع الاستكبار بالمستكبر إلى آثار وخيمة فحسب، بل ينتج عنه أيضاً عواقب سلبية وخطيرة على المجتمعات البشرية، ويُعدّ عائقاً مُهمماً أمام تقدّم الحضارات، والسؤال الرئيس لهذا البحث هو كيف يمكن، من خلال تحليل طبيعة الاستكبار وأنواعه، التوصل إلى عوامل الاستكبار وجذوره، وكذلك تقديم الحلول لمواجهة هذه الظاهرة المشؤومة.

ألُفّت مقالات وبحوث كثيرة عن موضوع الاستكبار في القرآن الكريم، وقد درس كل منها هذه الظاهرة من زاوية معينة، وأحياناً من منظورات مختلفة. في ما يأتي نعرّف ببعض منها: مقال «معنى الاستكبار في القرآن» لـ (أصغر افتخاري) و(مجتبى باباخاني)؛ في هذا المقال، يتناول المؤلفان بعد توضيح مفردة الاستكبار، عواقبه على المستويات الخلقية، والعقدية، والنفسية، والاجتماعية المختلفة. ومقال «معنى الاستكبار في القرآن بناءً على نظرية

(إيزوتسو - Toshihiko Izutsu) لـ (سيّد مهدي شهيدي). في هذا المقال، تُوضّح كلمة الاستكبار بمنهج دلاليّ بناءً على طريقة (إيزوتسو). ومقال ”الكبر والاستكبار“ لـ (مينو صابر بور)؛ في هذا المقال، يُبحث في مفهوم الاستكبار من منظور علماء اللغة والأخلاق، ويُشار إلى عواقب الاستكبار وطُرُق علاجه. مقال ”الاستكبار وأساليب مكافحته في القرآن“ لـ (سيّد صمد الموسوي). في هذا المقال، تُدرس دلالات كلمة الاستكبار، وظروف نشأته وعوامله، وطرق مكافحته. في الكتابات والأعمال المشابهة، نادرًا ما جرى التطرّق إلى موضوع تصنيف الاستكبار. لذلك، فقد سعى هذا المقال إلى تقديم توضيح واضح، ودقيق لأنواع الاستكبار وطرق تنفيذه.

ينبغي ملاحظة أنّ كلمة الاستكبار لا تُستخدم أبدًا في حقّ الله تعالى؛ لأنّ الاستكبار يعني السعي وراء العظمة والتفوق، ومن يسعى وراء العظمة هو من لا يملكها، بينما الله عظيم ورفيع الشأن. لذلك، الاستكبار مذموم وقبيح دائمًا، ولكن الكبر مذموم وقبيح فقط في غير الله^(١). وكذلك، على الرغم من أنّ مفردتي ”مستكبر“ و”متكبر“ تختلفان في المعنى، لكنّ مصداقهما واحد، ويُستخدم كل منهما حسب مقتضاه. المستكبر يسعى وراء العظمة ويريد أن يخرج تلك الرغبة من قلبه إلى الخارج، والمتكبر هو من قبل الكبر لنفسه وجعله صفة له^(٢).

أولاً: مفهوم «الاستكبار»

بما أنّ علم الدلالة هو أسلوب جديد وفعال في دراسة المفاهيم والمفردات وتوضيحهما واكتشاف معان جديدة لها، فقد بدأنا في هذا المقال بدراسة كلمة الاستكبار باستخدام طريقة علم الدلالة، ثمّ انتقلنا إلى تصنيف الأنواع لهذا المفهوم؛ لأنّه لا يمكن تحقيق فهم عميق وتحليل شامل لأنماط الاستكبار وأنواعه ما لم يتسنّ توضيح مفهوم الاستكبار، ومعناه الدقيق.

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦.

٢ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٣٤.

١. الاستكبار لغة واصطلاحاً

مفردة "الاستكبار" من باب "الاستفعال"، ومن مادة "كبر" بمعنى "العظمة وجلال القدر"^(١). والكبر حالة ناتجة عن إعجاب المرء بنفسه والشعور بالاستعلاء، وله وجهان: أحدهما، أنّ الإنسان في الظروف الزمانيّة والمكانيّة المناسبة يطلب العظمة، وهذا أمر لائق ومستحسن، والوجه الآخر هو أن يظهر عظمة في حين أنّه ليس كذلك في الواقع^(٢). الكبر له علاقة جوهرية وارتباط رئيس بكلمات ومفردات أخرى من المستوى نفسه، مثل الشرك والكفر، وتقع ضمن شبكة دلاليّة واحدة. عرّف أهل اللغة والمفسّرون "الاستكبار" بأنّه رفض الحقّ عن عناد وتكبر^(٣). والإصرار على عدم سماع كلمة الحقّ، وقبول الدعوة الإلهيّة^(٤). يُطلق لفظ «المستكبر» على من يسعى إلى التفوّق على الآخرين، وهو يرى نفسه أعظم من الآخرين ويسعى للحصول على مكانة لا يستحقّها^(٥). وبسبب هذا الشعور بالاستعلاء، فإنّ المستكبر يمتنع دائماً عن قبول الحقّ ويجادل في آيات الله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

٢. الفرق بين كلمتي «الاستكبار» و«التكبر»

التكبرُ يعني الظهور بالكبرياء وإظهار العظمة؛ سواء كان المتكبر يتمتع حقاً بالعظمة مثل الله المتعال أم لا، يتمتع بالعظمة ويدعي العظمة فقط، مثل تكبر غير الله. إذن، التكبر حقّ في حالة واحدة، وهي عندما يُستخدم في وصف الله [الحشر، ٢٣]. إذن، التكبر باطل في

١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج ٥، ص ٣٦١.

٢ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٦٧٩.

٣ - محمّد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٢٦.

٤ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص ٣٠.

٥ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦ وج ٢٠، ص ٨٠.

غير الله، والمتكبر يُلام^(١).

ينبغي الالتفات إلى أنّ مفردة الاستكبار لا تستخدم لله -عزّ وجلّ- بتاتاً؛ لأنّ الاستكبار يعني طلب الاستعلاء والتفوق، ولا يطلب إلاّ من كان فاقداً لها، في حين أنّ الله عالٍ وكبير. لذلك، فإنّ الاستكبار مذموم دائماً وقبيح، لكنّ التكبر مذموم وقبيح فقط في غير الله^(٢). كذلك فعلى الرغم من أنّ مفردتي المستكبر والمتكبر مختلفتان لكن مصداقهما واحد، وتستخدم كلّ منهما في ما يقتضي ذلك. يسعى المستكبر للتعالي والكبر، ويريد أن يُظهر تلك النزعة ويخرجها من برائن باطن إلى تجليات ظاهره، في حين أنّ المتكبر من رضي بالتكبر لنفسه وجعله صفة له^(٣).

ثانياً: دلالات «الاستكبار»

١. الكلمات الموائمة للاستكبار [المتوافقة في العلاقة التركيبية والأفقية لها]

لتحليل أيّ كلمة بدقّة، من الضروري تحديد المفردات الموائمة لها والمتوافقة أفقياً معها، وتقديم وصف دقيق لها، عندها فقط تُحدّد القيمة الدلالية للكلمات. في القرآن الكريم، وردت كلمات مثل: "عتوّ" في الآية ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، و"علوّ" في الآية ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٦]، و"استنكاف" في الآية ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣]، و"كفر" في الآية ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. و"ظلم" في الآية ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ... فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] موائمة ومتوافقة ومصاحبة لكلمة استكبار.

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦.

٢ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦.

٣ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٣٣٤.

من ناحية أخرى، وبمراجعة آيات القرآن، يُلاحظ أنّ مفردات مثل "بغي" [الشورى: ٢٧؛ القصص: ٧٦-٧٧]، و«بطر» [القصص: ٥٨؛ الأنفال: ٤٧]، و«استغناء» [العلق: ٦-٧؛ الليل: ٨،٩]، و«طغيان» [طه: ٤٣-٤٤؛ يونس: ٨،٧، ١١؛ النازعات: ٣٧-٣٨]، وُضعت على قدم المساواة من حيث المعنى مع كلمة استكبار، وفي الواقع يمكن عدّها ضمن النطاق الدلالي لكلمة استكبار وتفسيرها. كما أنّ هذه الكلمات تُعبّر عن أسباب الاستكبار وآثاره ونتائجه. طبعاً، ينبغي ملاحظة أنّه في بعض الحالات، لا تُعدّ المفردات الأنفة الذكر مرادفة تماماً ومتطابقة في المعنى مع كلمة استكبار، بل ثمة علاقة تساوي أو تشابه أو علاقة عموديّة [استبدالية] بين تلك الكلمات المفتاحيّة. وهذا التشابه والتساوي أو العلاقات الاستبدالية والحلوليّة بين الكلمات المحوريّة في القرآن تصل إلى حدّ يصعب معه أحياناً التمييز بينها^(١)، وفي ما يأتي شرح موجز لمعاني بعض هذه الكلمات وعلاقتها بالاستكبار:

أ. العتوّ

«عتوّ» على وزن «عُلوّ» تعني التجاوز والعصيان^(٢)، والغرور المفرط، والتصرّف باستكبار. مفردة «عنا» مع حرف الجر «عن» تعني الإعراض والتخلّف عن الأمر والنهي عن الأوامر والتعليمات والتمردّ عليها. إذا حكمنا من خلال الأمثلة المستخدمة لهذه المفردة، ربّما يمكن القول إنّ «عنا» تشير إلى التجلّيات الخارجيّة والملموسة للغرور والتكبر - في السلوك والقول -، بينما «الاستكبار» يشير إلى الحالة الداخليّة للغرور والتكبر^(٣).

يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ

١ - سيّد مهدي شهيدي: دلالة مفردة الاستكبار في القرآن الكريم حسب نظريّة إيزوتسو، ص. ١٣٤-١٣٥.

٢ - محمّد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٢٨.

٣ - توشيهيكو إيزوتسو: مفاهيم اخلاقيّة دينيّة در قرآن مجيد [المفاهيم الخُلقيّة الدينيّة في القرآن المجيد]، ص ٢٩٨.

رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿ [الفرقان: ٢١].

ب. العلوّ

عدّ علماء اللغة هذه الكلمة بمعنى العظمة والتكبر والتمرد^(١). يمكن أن يكون لـ "العلو" جانب ماديّ وجانب معنويّ، كما استخدم في القرآن الكريم بالمعنيين [النازعات: ٢٣-٢٤] [التوبة: ٤٠]^(٢). يقول القرآن في قصة النبي موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٦]، في هذه الآية، يُعرّف علوّ (فرعون) وأشرف قوم بني إسرائيل وتكبرهم بأنّه أحد جذور استكبارهم وأسبابه. المقصود بـ "العالمين" في الآية هو أنّهم كانوا يتمتّعون بالعلوّ والتفوّق على الآخرين، وقد جعلوا الآخرين عبداً ومطيعين لهم. العلوّ في الأرض كناية عن الطغيان على أهل الأرض وإخضاعهم لطاعتهم^(٣). وقد قال بعض المفسرين -أيضاً- إنّ مقصود القرآن هو ادّعاء فرعون الألوهية. هذه الروح الفرعونية كانت موجودة أيضاً بين جميع أشرف فرعون وحاشيته، بحيث لو وجد أيّ منهم فرصة، لطغى مثل (فرعون) وادّعى الألوهية^(٤).

ج. الاستنكاف

"استنكاف" من جذر "نكف" وتعني الإباء والامتناع^(٥). وقد ذكر بعض علماء اللغة أنّ الأصل في هذه المادة هو عدم طلب الشيء وعدم الميل إليه^(٦). وقد عدّ بعض المفسرين أيضاً

١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج ٢، ص ٢٤٥.

٢ - حسن مصطفى: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٨، ص ٢١٣.

٣ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مج ١٥، ص ٣٤.

٤ - محمّد جواد مغنّية: التفسير الكاشف، ج ٥، ص ٣٧٣.

٥ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٨٢٤.

٦ - محمّد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٣٤٠.

”الاستنكاف“ مرادفًا لكلمة ”استكبار“^(١). يبدو أنّ سبب انتشار هذا المعنى لـ ”الاستنكاف“ هو اقترانه بالاستكبار في الآيتين الشريفتين ١٧٢ و ١٧٣ من سورة النساء، ولكن الاستكبار لا يدخل في مفهوم الاستنكاف، وسبب ذلك هو ذكرهما بشكل منفصل في هاتين الآيتين^(٢).

د. الكفر

”الكفر“ في اللغة يعني الستر والتغطية، وسبب تسمية ”الكافر“ بذلك، هو أنّه يسعى لتغطية الحقيقة ومنع ظهورها^(٣) في كثير من الحالات، عدّ القرآن الكريم الكفر نتيجة لاستكبار الأفراد وتكبرهم، وأحد أسبابه ومصادره، مثل استكبار الشيطان عن طاعة الأمر الإلهي بالسجود لآدم عليه السلام في الآية الآتية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وفي آية أخرى، عن الذين يتمنون بعد موتهم عند رؤية العذاب الإلهي أن يعودوا إلى الدنيا ليكونوا من المحسنين، يقول: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩].

هـ. الظلم

يعني الظلم وضع الشيء في غير موضعه. سواء أكان ذلك بزيادة أم نقصان فيه، أم بالخروج عن زمانه ومكانه^(٤) في الواقع، ”الظلم“ هو إضاعة للحقوق القائمة بين الإنسان والله والناس الآخرين، وهو الخروج عن طريق الحق والاعتدال في الأفكار، والمعتقدات،

١ - حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١٢، ص ٢٤٧.

٢ - حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١٢، ص ٢٤٧.

٣ - حسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٧١٩.

٤ - حسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٥٣٧.

والأعمال، والآداب، والأخلاق، والصفات النفسية، والأقوال.^(١) يذكر الله -تعالى- في بعض الآيات الاستكبار بوصفه سبباً لظلم المستكبرين:

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

٢. الكلمات المقابلة والمضادة للاستكبار.

إنّ دراسة المفردات المضادة مهمّ للفهم الكلمات بدقّة، وإيجاد المعاني المشتركة بينها. لذلك يسعى المقال في هذا القسم، لتحقيق فهم أفضل وأكثر دقّة لمفردة الاستكبار من خلال دراسة المفردات المقابلة والمضادة لها.

أ. الإيمان

”الاستكبار“ هو نقيض ”الإيمان“، وهو من عوامل عدم الإيمان بالله والأنبياء. كما يقول:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ويقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٣]. كما يلاحظ، في هذه الآيات، فقد وُضع الاستكبار في مقابل الإيمان.

ب. التقوى

لقد ورد في بعض الروايات أنّ عدم إرادة العلو والاستكبار هو أوّل درجة من درجات

١ - حسن مصطفىوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٧، ص ١٧١.

التقوى. يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث طويل: «وَلَا يَطْلُبُ الدُّنْيَا تَكَثُرًا وَتَفَاخُرًا وَلَا يَطْلُبُ مَا عِنْدَ النَّاسِ عِزًّا وَعُلُوًّا وَلَا يَدْعُ أَيَّامَهُ بَاطِلًا فَهَذَا أَوَّلُ دَرَجَةِ التَّقَى قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]»^(١).

ج. الاستضعاف

يمكن عدّ هذه الكلمة نقيض الاستكبار تمامًا. ورد لفظ الاستضعاف بصيغتي الاسم والفعل ١٥ مرّة في القرآن،^(٢) ويعني سلب القدرة والطاقة على أداء الواجب [الأعراف: ١٥٠] و[هود: ٩١]، وعدم وجود حيلة أو مخرج من الظلم [النساء: ٧٥]، وعدم التمتع بالمكانة الاجتماعية والضعف والتشتت [الأنفال: ٢٦]، والعجز العلمي والتبعية العمياء للشخصيات السياسية والاجتماعية [إبراهيم: ٢١]، وغير ذلك.

لقد وضع القرآن الكريم المستكبرين في مقابل الضعفاء [إبراهيم: ٢١]؛ لتنبههم إلى أنّ استكبارهم كان بسبب قوتهم البدنية والمالية، وفي مكان آخر وضع المستكبرين في مقابل المستضعفين^(٣).

كلمة "مستضعف" مشتقة من مادة "ضعف"، ولكن بما أنّها صيغت على وزن "استفعال"، فهي تعني من جرى إضعافه وتقييده. بمعنى آخر، المستضعف ليس ضعيفاً وعاجزاً ويفتقر إلى القوة والطاقة. المستضعف هو من يمتلك قوى فعلية وكامنة، ولكنه يتعرض لضغط شديد من الظالمين والمتجبرين. للمستضعف أنواع وأقسام، ولكن ما ركّز عليه القرآن الكريم أكثر هو

١ - محمّد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.

٢ - محمّد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، صص ٥٣٣-٥٣٤.

٣ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤٣٨.

المستضعفون سياسياً وخلقياً^(١). في الجدول أدناه، توضيح للعلاقة بين الاستكبار والكلمات المرادفة والمضادة له.

تصنيف الكلمات المرادفة والمضادة للاستكبار

المفردات المرادفة للاستكبار	العتو، والعلو، والاستنكاف، والكفر، والظلم.
المفردات المضادة للاستكبار	الإيمان، والتقوى، والاستضعاف.
النتيجة	العتو، والاستنكاف، والكفر، والظلم هي نتائج الاستكبار، والعلو هو جذره. كما أن غياب الإيمان والتقوى يؤدي إلى ظهور روح الاستكبار واستضعاف الآخرين وتطور ذلك.

٣. مستويات الاستكبار

يمكن دراسة الاستكبار على مستويين فرديّ واجتماعيّ. يؤثر هذان المستويان في بعضهما الآخر. وهذا يعني أن الاستكبار الفرديّ يؤدي إلى الاستكبار الاجتماعيّ. نتناول هذين المستويين أدناه:

أ. المستوى الفرديّ

التفسير الأوّل لكلمة الاستكبار يرتبط بالفردي؛ بمعنى أن هذه الآيات تعدّ المستكبرين كفّاراً لم يخضعوا أنفسهم للدعوة الإلهية، وأنهم قد عصوا الله. توجد هذه الفئة من المستكبرين

١ - ناصر مكارم الشيرازي وآخرون: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٩، ص ٢٠.

في كل طبقة وفئة، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء، حكماً أم محكومين، كما أشار القرآن الكريم في عدة آيات إلى استكبار (إبليس) وعصيانه للأمر الإلهي بالسجود لآدم (عليه السلام) [البقرة، ٣٤] و[ص: ٧٤-٧٥].

ب. المستوى الاجتماعي

التفسير الثاني لكلمة الاستكبار يرتبط بالمجتمع. تصف آيات من القرآن المستكبرين بأنهم كُفَّار يمتلكون مواقع اقتصادية، وعسكرية، وسياسية في المجتمع، ويخضعون عدداً من الناس لسيطرتهم. هذه الفئة من الكفار، فضلاً عن استكبارها على آيات الله على المستوى الفردي، تحتقر خلق الله وتتكبر عليهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

تسعى هذه الفئة من الكفار بما تحظى به من تسلط على المجتمع، وما تمتلكه من إمكانات بكل ما أوتيت من قوة لإضلال الناس. يقول القرآن في هذا الشأن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْتَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

٤. أنواع الاستكبار في القرآن الكريم

وفقاً لآيات القرآن الكريم، ينقسم الاستكبار بنحو عام إلى نوعين:

■ استكبار المخلوق على سائر المخلوقات.

■ استكبار المخلوق على الخالق.

إنَّ استكبار المخلوق على سائر المخلوقات قبيح؛ لأنَّ كلاهما متساويان في الفقر

والحاجة. ومن هذا المنظار، فإنَّ استكبار أحدهما على الآخر هو تجاوز للحدود، وهذا يعدّ بنفسه ظلماً وطغياناً. أمّا استكبار المخلوق على الخالق، فهو أن يرى المخلوق نفسه مستقلاً وغيئاً عن الخالق، وهذا يحدث عندما يكون المخلوق غافلاً عن مقام ربّه؛ لأنّه لو علم أنّ مكانته بالنسبة إلى خالقه هي مكانة المحتاج، والفقير والذليل في مقابل الغنيّ والعزيز، لما سعى أبداً إلى ظنّه بالتفوق على خالقه. نتيجة هذا الاستكبار والتكبر على الخالق هو الاستكبار في العمل، ومثل هذا الشخص لا يطيع أوامر الله ولا يتعد عن نواهيه. إذا لم ير الإنسان لنفسه إرادة مستقلة ومنفصلة عن إرادة ربّه، فلن يمتنع أبداً عن طاعته^(١).

أ. تكبر المخلوق تجاه الخالق: إنّ التكبر العبادي هو من أهمّ أنواع تكبر المخلوق تجاه الخالق. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من التكبر في بضع آيات: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣]. في هذه الآية ينبغي ملاحظة نقطتين:

■ وردت في هذه الآية الكريمة كلمة «استنكف» ملاصقة لكلمة «استكبار». الاستنكاف يعني الامتناع والابتعاد عن شيء، ولهذه المفردة معنى واسع، ومع ورود عبارة «استكبروا» يُقيد هذا المعنى بشيئين؛ لأنَّ إنَّ الامتناع عن عبودية الله يكون تارة ناشئاً عن الجهل وعدم الإدراك، وأحياناً يكون بسبب التكبر والاعتداد بالنفس والعصيان؛ ورغم أنّ كلاهما خطأ، لكنّ الثاني أسوأ بكثير من الأوّل^(٢). المقصود في الآية هو استنكاف يكون بدافع

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦-٢٦٧.

٢ - ناصر كارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٤، ص ٢٣٢.

التكبر والاعتداد بالنفس لا استنكاف ناجم عن الجهل وعدم الإدراك. الاستنكاف بمفرده لا يوجب سخط الله؛ لأن الاستنكاف نوعان: أحدهما من الجهل والضعف، والآخر من الاستكبار. الاستنكاف الذي يُغضب الله هو الذي يكون بدافع الاستكبار^(١). إذن، الاستنكاف هو الإعراض الجاهل، والاستكبار هو العصيان عن وعي. لذلك، إذا كان لدى المرء معرفة لكنّه أعرض عن عبادة الله، فاستنكافه سيمتزج مع الاستكبار، كما في هذه الآية والآية التي تليها فقد جاء بعد الاستنكاف مفردة الاستكبار؛ لأن استنكاف عيسى المسيح عليه السلام والملائكة لا يتحصّل إلا باستحكام روح الاستكبار فيهم وبما أنّ العلم والإيمان لدى المسيح عليه السلام، والملائكة هو حائل ومانع من الاستنكاف. لذلك، فإن ذكر الاستكبار في الجملة الثانية هو للتعبير عن طهارة هذه الذوات القدسيّة من الخبائث والدنس^(٢).

ورد الاستكبار عن العبادة في آية أخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وقد اختلف المفسرون في المراد بالدعاء في هذه الآية، فقال بعضهم: إنّ الآية أمر بالدعاء، وقال آخرون: إنّها أمر بالعبادة؛ وذلك بسبب العبارة التي تليها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. فالأمر بالدعاء هو أمر بالدعاء المطلق، والدعاء بمعنى العبادة قد ورد في القرآن بكثرة. فالدعاء في الواقع هو اعتراف بالعبوديّة والذلّة والمسكنة، وتارك الدعاء مستكبر عن إظهار العبوديّة. وعلى كلّ حال، فإنّ فائدة الدعاء هي الفزع والانقطاع إلى الله^(٣).

■ أجاز بعض المفسرين استعمال لفظ الدعاء والاستجابة بمعناهما الظاهري؛

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ١٥٠-١٥١.

٢ - عبد الله جوادي آملي: تسنيم، ج ٢١، ص ٤٣٨.

٣ - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، ج ٢٧، ص ٥٢٧.

لأنّ الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها^(١). وهكذا، فقد فسّر عدد من المفسّرين الدعاء في هذه الآية بمعناه المعروف. والأهمّ من ذلك هو أنّ الدعاء والعبادة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في ما بينهما، والدعاء هو أحد تطبيقات العبادة وفروعها المهمّة.

كذلك، يذكر القرآن الكريم استكبار (إبليس) في عدم امتثاله لأمر السجود لآدم عليه السلام بقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١-٧٦]. يصدّر الله -تعالى- في هذه الآيات شعور الشيطان بالتفوّق على آدم عليه السلام بصفته سبباً لاستكباره عن السجود له. وقد استدلّ الشيطان في هذه الآية بأنّ خلقته كانت من النار، وخلقة الإنسان من طين. وهذا ما حدا بالشيطان متكبراً ليشعر بأنه أفضل من آدم عليه السلام، ويميّز عنه ويتفوّق عليه، وممّا يستنتج من إجابة الشيطان أنّ الاستكبار ينتج عن التمحور حول الذات، وهدف الشيطان من سوق عبارة «أنا خير منه» هو التعبير عمّا يعتقده من تميّز عرقِيّ جنسيّ وأيضاً التفاخر على الإنسان، وقد أدّى جميع ذلك إلى غروره وتكبره.

يُستنكر عمل الشيطان من عدّة جوانب، أحدها بسبب جرأته على ربّه؛ لأنّه لا ينبغي للمخلوق أن يتفوّه بكلمة «أنا» أمام خالقه، والآخر هو إعلاؤه من شأن نفسه أمام خالقه، بينما هو أعلم بأحواله من الجميع. والنقطة الأخرى هي أنّ الشيطان بجهله ظنّ أنّ النار أفضل من التراب، بينما لم يكن الأمر كذلك، وهذا لا يمكن أن يكون معياراً لتفوّق الشيطان على الإنسان^(٢).

واستناداً إلى الآيات التي فُسّرت ووُضّحت يمكن استنتاج أنّ «الامتناع والاستنكاف عن

١ - محمود الزمخشري: الكشّاف، ج ٤، ص ١٧٥.

٢ - محمّد بن حبيب الله السبزواري النجفي: الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج ٦، ص ١٣٦.

طاعة الأوامر الإلهية هو أحد نتائج الكبر أمام الله، ونتيجته هي العذاب الإلهي الشديد. لذا، يمكن استنتاج أنّ جميع الذنوب في التحليل النهائي تعود إلى ادّعاء الأنانية والصراع مع كبرياء الحقّ تعالى.

ذكر القرآن الكريم فضلاً عن أمثلة للمستكبرين أمثلة -أيضاً- لأولئك الذين لا يتكبرون ويخضعون لأوامر الله؛ مثل ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]. فكلّ ما في السماوات والأرض هو ملك لله، والملائكة والأرواح القدسيّة المقربّة من حضرته لا ترفض عبادته أبداً، ولا تتعب من العبادة التي يؤدونها بشوق ورغبة. في هذه الآية، يشير إلى الروح النقيّة من الكبر لدى العباد المقربين والملائكة الكرام؛ أولئك الذين يعرقون في عبادة الله دون كلل أو وملل، ولا يشغلهم أو يمنعهم أي شيء عن هذه العبادة الدائمة^(١).

ب. استكبار المخلوق تجاه المخلوقات الأخرى

■ الاستكبار السياسي

المستكبرون السياسيون هم أولئك الذين يتولّون الحكم وإدارة المجتمع، وبنوع من السيطرة والاستعمار والاستغلال، يسعون لجعل عباد الله صغاراً ودينين وجهلة، ويستعبدونهم ويحكمون الناس بالباطل. في القرآن الكريم، يرتبط الاستكبار دائماً بكلمات مثل «الظلم» و«الطاغوت»، وقد وُصفت شخصيات مثل (إبليس)، و(فرعون)، و(نمرود) و... بأنّهم مستكبرون.

في هذا السياق، يبدو التكبر الصفة الأكثر تكراراً فيما يرتبط بشخصية (فرعون)، وهي الصفة الناجمة عن صفاته الأخرى.

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ص.ص ٢٦٥ - ٢٨١

النقطة المقابلة للاستكبار السياسي في الثقافة القرآنية هي الاستضعاف. يسعى المستكبرون بأساليب متنوعة إلى استعباد الآخرين وإضعافهم والسيطرة عليهم. ولما كان هدف المستكبرين هو تربية المستضعفين، فإنهم يستخدمون أي وسيلة لمنع النمو الفكري لدى البشر، والحد من تقدمهم وتطورهم، فهم يحقرونهم بطريقة لا تمكنهم من المضي قدماً نحو الأمام. هذا التحقير والاستهانة بالخلق ليس باللسان فقط، بل يهيئون عملياً وبأساليب مختلفة أسباب الذل والشقاء والإهانة للبشر الآخرين.

أحد النماذج القرآنية العظيمة في محاربة الاستكبار هو النبي موسى (عليه السلام)، ولربما أحد المظاهر الجميلة والبارزة هي حركة النبي موسى (عليه السلام) لمواجهة استكبار فرعون واستضعافه لبني إسرائيل؛ إذ كانت هذه الحركة مواجهة للسلطة الفرعونية العظيمة في مجتمع اعتاد على الاستضعاف الفرعوني، وكانت مهمة صعبة للغاية. يصف القرآن الكريم الاستكبار الفرعوني على النحو الآتي:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٤-٥]؛ لقد استعلى فرعون في الأرض، وقسم أهلها إلى جماعات مختلفة؛ أضعف جماعة منهم، وذبح أبناءهم واستحى نساءهم للخدمة؛ لذلك نعتهم الله بسمة المفسدين. وبالتالي، أراد الله -عز وجل- أن يمن على المستضعفين في الأرض، وأن يجعلهم أئمة ووارثين في الأرض. فالقرآن يدعم دائماً المستضعفين ضد المستكبرين. في هذه الآية أيضاً تتعلق إرادة الله ومشيئته بالحاكمة العالمية للمستضعفين وبدعم مظلومي التاريخ ضد المستكبرين.

لقد قام (فرعون)، بناءً على هذه الآية، بعملين استبداديين ومستكبرين:

● اتبع سياسة فرق تسد، فقد شكّلت هذه السياسة على مر التاريخ الركن الرئيس لحكم المستكبرين؛ لأن حكم أقلية ضئيلة على غالبية كبيرة لا يمكن أن يتحقق إلا بهذه السياسة. ويخشى المستكبرون كثيراً من تماسك صفوف الناس. ولهذا

السبب، الحكم الطبقي هو السبيل الوحيد للحفاظ عليهم.^(١)

● الجريمة الثانية لـ (فرعون) كانت إضعاف مجموعة من سكان تلك الأرض. لقد خطّط الفراعنة لإضعاف بني إسرائيل من خلال القضاء على ذكورهم الذين كان بإمكانهم القيام ضدّهم والثورة عليهم ومحاربتهم، وترك الفتيات والنساء فقط اللاتي لم يكن لديهنّ القدرة على الثورة والمقاومة بمفردهن، للخدمة^(٢).

احتجّ النبيّ موسى (عليه السلام) على فرعون بسبب هذا الاستضعاف لبني إسرائيل واستعبادهم، لكنّ (فرعون) ردّ على كلامه قائلاً: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨-١٩].

أجاب موسى (عليه السلام) قائلاً: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ أهذه نعمة تمنّها عليّ أن استعبدت بني إسرائيل؟! في نظر فرعون ذلك اليوم والفراعنة اليوم، عباد الله والجماهير والشعوب الأخرى هم عبيدهم، ولهم الحقّ في قتل واستعباد من يشاؤون منهم.

تسمح هذه النظرة لدى التيار الاستكباري باتخاذ القرارات عن الشعوب الأخرى وفرض قراراتهم عليها. فأسلوب المستكبرين دائماً هو عدّ جميع الناس "عبيداً لهم". كما كان (فرعون) يرى أنّ بني إسرائيل عبيداً وخدمًا له: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

إحدى طرق السيطرة النفسيّة والروحيّة على الآخرين هي تحقير شخصيّتهم، وبثّ هذا الشعور لديهم بأنّهم أدنى من الآخرين. على مرّ التاريخ، عمل المستكبرون دائماً بهذه الطريقة وسيطروا على الناس من خلالها. كان فرعون من المستكبرين الذين استخدموا هذه الطريقة للسيطرة على الناس: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

١ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٦، ص ١١.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٦، ص ١٣.

يسعى المستكبرون الكفار إلى تحقيق أهدافهم من خلال السيطرة على أفكار الناس ومعتقداتهم وثقافتهم، وتهيئة الظروف لزيادة سيطرتهم. ولا بد من الإشارة إلى أنه فضلاً عن المستكبرين، فإنَّ المستضعفين أنفسهم يلعبون دوراً في ظهور الاستكبار والتأسيس له، وإنَّ اتِّباعهم للمستكبرين وخططهم ومخططاتهم هو أحد العوامل المهيِّمة في خلق الاستكبار وتقويته. تشير بعض الآيات إلى دسائس المستكبرين الليلية والنهارية لغرس أفكارهم في المستضعفين وتشجيعهم على اتِّباعهم، وكذلك تُبيِّن اتِّباع المستضعفين للمستكبرين بسبب الاستضعاف الثقافي الذي غالباً ما يكون مصحوباً بضعف اقتصاديٍّ وعسكريٍّ. هؤلاء المستضعفون الذين يتقاعسهم عن المستكبرين يتسبَّبون في تقوية الاستكبار وسيطرته، سيكونون في العذاب الأخرى مع قاداتهم المستكبرين [غافر: ٤٧]، [سبأ: ٣١-٣٤] و[إبراهيم: ٢١].

أساليب الاستكبار السياسي المختلفة

- يستخدم المستكبرون عامَّة قوتهم وقدرتهم ضدَّ الجماهير المستضعفة بطريقتين:
- طريقة إيجابية: من خلال إضفاء الشرعية على حكمهم عبر إقناع الجماهير بأنَّ الحقَّ دائماً معهم، وينبغي دعم أصحاب السلطة وإطاعتهم الذين يمثلونها وإجبار الآخرين على طاعتهم.
 - طريقة سلبية: نزع الشرعية عن قوة الأعداء وإلقاء هذا الأمر على الآخرين بأنَّ معارضيتهم يستحقُّون الدمار والهلاك [إنهاء وجود المعارضين] في هذا الصدد، يتَّخذ المستكبرون إجراءات لتوسيع سلطتهم الاستكبارية، وهي:

* الأساليب الإيجابية

- الرغبة بتماهي الآخرين معهم
- يحبُّ الكفار المستكبرون الذين لم يؤمنوا بالله -تعالى- أن يكون الجميع مثلهم بلا إيمان.

في هذه الحالة، بجعل الآخرين مثلهم، لن يهددهم أي خطر عملياً: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: ٨٩]؛ فهم يتمنون لو تكفرون كما كفروا فتكونون مثلهم ومشابهين لهم.

■ الإغراء

كان الإغراء أحد الأدوات الفعّالة لجذب الأفراد والجماعات لتحقيق أهداف المستكبرين، بتقديم الوعود الدنيويّة أو للوصول إلى مكانة رفيعة، واكتساب القرب والمنزلة في الحكومات و... إلخ. ونموذج على ذلك حينما اتّخذ القرار لاختبار موسى عليه السلام أمام السحرة وعد فرعون السحرة بأنهم لو غلبوا موسى عليه السلام سيكونون من زمرة المقرّبين منه، ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

إنّ سؤال السحرة عمّا إذا كان لهم أجر؟ كان بمعنى طلب الأجر، وقد نجح بالفعل؛ لأنّ (فرعون) حدّد لهم أجراً ووعدهم بأن يجعلهم من المقرّبين لديه^(١). هذا التعبير يُظهر مدى أهميّة القرب من فرعون في تلك البيئّة والمجتمع؛ حيث يذكره باعتباره أجراً عظيماً، ويحدّد بأنّ ليس ثمة أجر أعلى من أن يتقرّب الإنسان من القوّة التي يرغب فيها^(٢).

■ تهيج المشاعر

يحاول المستكبرون أحياناً باللين والصدّاقة، وفي ثوب الخير والإصلاح، تبرير أعمالهم الاستبداديّة وجرائمهم، ويستغلّون العواطف والعصبيّات الوطنيّة والدينيّة للناس. كما فعل (فرعون): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ٣٨٤.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٠، ص ٢٢٢.

يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ* وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿غافر: ٢٦-٢٧﴾. يذكر (فرعون) سببين لتبرير قراره بقتل موسى (عليه السلام)، أحدهما له جانب ديني ومعنوي، وهو الخوف من تغيير الدين وزوال دين الأجداد، والآخر له جانب دنيوي ومادي، وهو الخوف من إحداث الفساد والفتنة. بالطبع، الدين من منظار (فرعون) لم يكن إلا عبادته أو عبادة آلهة أخرى، دين في سبيل تخدير الناس وتجهيلهم، ووسيلة لتقديس سلطته الجائرة. أما الفساد من وجهة نظره، فكان ظهور ثورة ضد الاستكبار لتحرير الجماهير المستعبدة والمقيّدة، ومحو آثار عبادة الأصنام وإحياء التوحيد^(١). وقد ردّ موسى (عليه السلام) على كلام فرعون قائلاً: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. من هذا القول لموسى (عليه السلام) نستنتج نقطتين:

■ الأفراد الذين يتّصفون بصفتي "التكبر" و"عدم الإيمان بيوم القيامة"، يعدّون أشخاصاً خطّرين، وينبغي اللجوء إلى الله منهم. التكبر يجعل الإنسان لا يرى إلا نفسه وأفكاره، ويصف آيات الله ومعجزاته بالسحر، والمصلحين بالمفسدين، ونصائح الأصدقاء والمقربين بالتحقّظ وضعف النفس. كما أنّ عدم الإيمان بيوم الحساب يجعل برنامج الإنسان وعمله بلا حساب بل ويواجه قوّة الله اللامحدودة بقوّة الضئيلة جدّاً، فيحارب أنبياءه لأنّه لا يوجد حساب^(٢). ربّما يمكن القول إنّ عدم الإيمان بالحساب يجعل الإنسان متكبراً.

■ يشير موسى (عليه السلام) بقوله ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ ضمناً إلى الناس بأنّ (فرعون) ليس إلهكم، وأنّه ينبغي اللجوء إلى الله الواحد الأحد فقط. لا شكّ بأنّ أحد عوامل بسط السلطة الاستكباريّة على جماهير الناس هو جهل الناس وعدم وعيهم، ووجود عصبّيّات خاطئة وجمود فكريّ. لذلك، يعدّ الاعتماد على العادات

١ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٠، ص ٧٩-٨٠.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٠، ص ٨١.

والتقاليد الخاطئة الماضية واتباع عقائد الآباء والأجداد، عائقاً كبيراً أمام العقلانية وذريعة مناسبة للمستكبرين لتوسيع الفكر والروح الاستكبارية في المجتمع. من هذا المنطلق، ينتقد القرآن الكريم مراراً وتكراراً المعتقدات الناتجة عن الجمود الفكري والجهل. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصَدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

* الأساليب السلبية

■ التحقير والتكذيب

قام المرفهون المستكبرون من قوم صالح عليه السلام بالنيل من النبي صالح عليه السلام والتشكيك في حقه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَلَحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦-٧٥].

■ كيل التهم

كان المستكبرون، يتهمون الرسل الإلهيين ضمن مواجعتهم لهم بأمور لتبدو دعوتهم الإلهية كاذبة، ويحرصوا الناس ضدهم. كانت هذه الاتهامات تتناسب في كل زمان مع الجو السائد في المجتمع ومع ما يتحسس منه الناس، مثل اتهام الأنبياء بالسحر والجنون [الذاريات: ٥٢]. ووصف تعاليمهم بأنها أساطير الأولين [الأنفال: ٣١] وعدد دعوتهم وسيلة للسيطرة على الأراضي [الشعراء: ٣٤-٣٥]. ومن هذه النماذج الأخرى من الاتهامات. لقد كان ترسيخ مثل هذه الذهنية في أذهان الناس يجعلهم يشكون ويترددون في اتباع الأنبياء الإلهيين، ويهيئ للمستكبرين المناخ الموائم للسيطرة.

عدّ (فرعون) -أيضاً- دعوة موسى عليه السلام مؤامرة لإخراج الناس من أرضهم لكي يضعهم في مواجهة موسى عليه السلام، وقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٥٧]. في الواقع، هذا الاتهام هو اتهام سياسي؛ لكي يحرض الرأي العام ضده ويقدمه باعتباره عدواً للأمم؛ حيث يريد بمخططاته أن يخرجهم من وطنهم وأرضهم^(١). كانت هذه مؤامرة مدروسة؛ لأنّ غالبية الناس يحبّون أرضهم ووطنهم بوصفها أرواحهم، ولذلك في بعض آيات القرآن، وُضع هذان الأمران جنباً إلى جنب [النساء: ٦٦].

■ إثارة الجدل والتشويش وتحريف الرأي العام

مع وجود بيئة اجتماعية صحيّة، فإنّ الضمائر النقيّة والفطر السليمة ستبج الحقّ. لذلك، يسعى المستكبرون إلى خلط الحقّ بالباطل، وفرض الباطل على الناس باعتباره حقاً. يقوم هؤلاء لتحريف الرأي العام بتمثيل مشاهد لجذب أفكار الجماهير وصرفهم عن الحادثة المقصودة، ومثال ذلك في القرآن، تمثيل (فرعون) أنّه قد بنى برجاً المعروف لإخراج موسى عليه السلام من الساحة. فكما هو مذكور بعد سماع (فرعون) بإيمان السحرة بموسى عليه السلام. وفي سبيل تحريف الأفكار العامّة، قال لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. على أيّ حال، وفقاً لبعض التواريخ، أمر (هامان) بتخصيص مساحة واسعة للقصر والبرج العالي، وأرسل خمسين ألف بناة ومهندس لهذا العمل. ارتفع البناء لدرجة أنّه أشرف وأطلّ على جميع المناطق المحيطة. عندما اكتمل البناء، احتفل (فرعون) هناك وصعد البرج بنفسه. من المعروف أنّه وضع سهماً في القوس وأطلقه نحو السماء، وعاد السهم ملطخاً بالدم نتيجة اصطدامه بطائر أو وفقاً لمؤامرة سابقة، ثمّ نزل (فرعون) من هناك،

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٤، ص ٢٤٠.

وقال للنّاس: اذهبوا، وارتاحوا، لقد قتلت إله موسى^(١). كان (فرعون) يهدف من خلال هذه المسرحيّة توفير وسيلة لشغل فكر الناس وصرف انتباههم عن قضية نبوة موسى (عليه السلام) وقيام بني إسرائيل. فضلاً عن ذلك، كان يقول إنّه لا يعلم إلهاً غيره ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. وفي الحقيقة، ادّعى هذا الادعاء لتضليل الناس وإغوائهم^(٢)، ليطنى بناء هذا الصرح الشاهق على القضايا الأخرى، ويلفت انتباه الناس إليه أكثر. وينسى الناس انتصار موسى (عليه السلام) على السحرة.

كان المستكبرون أيضاً في زمن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يثيرون الجدل، وينشرون جواً دعائياً مسموماً. هؤلاء الأفراد كانوا يلجؤون إلى هذه الحيلة لحرمان الخصم من فرصة الظهور وإخفاء صوت الحقّ بإثارة الجدل. يصف القرآن الكريم حال هؤلاء المستكبرين فيقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ وهنا عبارة "الغوا فيه" تعني بثّ الأصوات المزعجة والتشويش أثناء تلاوة القرآن لصرف الانتباه عن أفكاره الحقّة. لذلك، كان أحدهم أحياناً أثناء تلاوة القرآن من جانب النبي (صلى الله عليه وآله) يصفق ويصقّر في محاولة لجذب انتباه الناس حتى لا يدركوا حقائق الرسالة. هذا التشويش الجاهليّ هو نوع من السيطرة على الساحة والميدان من قبل استكبار ممتزج بالباطل في الأرض. فبناء الكفّار الثقافي قائم على التشويش وتشويه الرؤى الصادقة والحقّة^(٣). من هذه الآية ندرك عدّة حقائق:

- لا شك بأنّ ما ينشره الطواغيت عبر أجهزتهم الدعائيّة هو ضلال وبطالان، والحقّ هو ما بيّنه الوحي الإلهي.
- البناء الثقافيّ للمتكبرين والمستكبرين قائم على مواجهة الحق وتشويهه.

١ - أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ: جامع البيان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص ٤٩.
 ٢ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٥٢.
 ٣ - محمّد تقيّ المدرسيّ: من هدى القرآن، ج ١٢، ص ٢١١.

■ هدف أجهزة الدعاية الكافرة هو العلو والتفوق في الأرض والسيطرة في المعركة ضد الحق. لا شك بأنهم يضلّون الناس عن الحق ويمنعونهم من الوصول إلى الحقائق ويحجبون عنهم النور الإلهي، وحجم العذاب الذي ينتظرهم هو بقدر ما يوصلونه للناس ويطرقون به أسماعهم^(١).

■ التهديد والترهيب

استخدم المستكبرون عبر التاريخ وفي مواجهة الثورات التوحيدية والمجاهدين المنبثقين من الأديان الحقّة هذه الطريقة لإخراج الخصم من الميدان. وكان المستكبرون من قوم شعيب عليه السلام وأشرفهم أيضاً يهدّدون الناس بأنهم إذا اتبعوا شعيباً فسيخسرون: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]. كما هدّدوا شعيباً عليه السلام بالنفي والإخراج من الوطن: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

كان جميع المستكبرين الذين وقفوا في وجه الأنبياء الإلهيين، ولم يُسلموا لهم القيادة في سبيل الخير والصلاح، يخيّرون أنبياء قومهم بين أمرين: إمّا العدول عن الطريق الإلهي وقبول العادات والتقاليد والثقافة السائدة في المجتمع، وإمّا الخروج من ديارهم. وقد وردت هذه المسألة في آيات أخرى من القرآن أيضاً [إبراهيم: ١٣]، و[الأعراف: ٨٨]، و[الشعراء: ١٦٧] و[الإسراء: ٧٣-٧٤].

تولّى جماعة الأشراف والأثرياء من ذوي المظهر الجميل والباطن السيئ الذين يُعبر عنهم بـ "الملاء"^(٢) [الذين يملأون العين] زمام المعارضة لهذا النبي الإلهي العظيم^(٣)، وهم أشراف

١ - محمّد تقي المدرسي: من هدى القرآن، ج ١٢، ص ٢١٢.

٢ - "الملاء" هم جماعة من الناس تملأ هيئتهم العين والقلب.

٣ - ناصر مكارم الشيرازي وآخرون: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٦، ص ٢٣٨.

الناس ورؤساؤهم الذين يلتفت الناس إلى أقوالهم^(١). بناءً على تعاليم القرآن الكريم، كان معظم المستكبرين من طبقة الأشراف في المجتمع، وكان معظم الذين قبلوا دعوة الأنبياء الإلهيين واستسلموا لأوامر الله من المستضعفين والطبقات الدنيا في المجتمع. لذلك يمكن عدّ "الطبقة المرفّهة التي تدّعي الشرف" أحد العوامل التي تؤدي إلى نشأة الاستكبار في المجتمع.

■ التعذيب والقتل

آخر حيلة للمستكبرين للقضاء على المعارضين هي إزالتهم جسدياً من الساحة الاجتماعية. فعندما واجه (فرعون) إيمان السحرة على عكس توقعه هدّدهم: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبِنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ترتكز شخصية المستكبرين على نمط مجاف للآخرين وحالة عداوية تنهر غيرهم بسبب اعتقاداتهم القلبية ويطالبونهم بالتماهي وتحقيق الانسجام معهم ومع عقائدهم المنحرفة، بحيث لو قام أحدهم بأمر يخالف ما يروونه وما يريدونه، فإنهم سوف يصبّون جام غضبهم عليه ويزجرونه.

أساليب بسط السلطة السياسيّة							
الأساليب السلبيّة				الأساليب الإيجابيّة			
التحقير والإهانة	كيل التُّهم	بثّ الفوضى	التهديد والإرهاب	التعذيب والقتل	الإجبار على التماهي	الإغراء	إلهاب المشاعر

١ - فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، ج ١، ص ٣٩.

■ الاستكبار الاقتصادي

يُسَمَّى الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِجَمْعِ الثَّرَوَاتِ مِنَ السُّحْتِ وَكَنْزِهَا، وَيَتَسَمَّوْنَ قَمَمِ السِّيَادَةِ وَالْهَيْمَنَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيُمَسُّوْنَ قَطْبَ رَحَى الْاِقْتِصَادِ فِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ مَتَفَاخِرِينَ بِهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ، وَيُقْبَلُونَ عَلَى الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ بِالْمُسْتَكْبِرِينَ الْاِقْتِصَادِيِّينَ. وَقَدْ كَانَ (قَارُونَ) هُوَ الْاَنْمُوذَجِ الْاَعْلَى لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ.

يَذَكَرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ غُرُورَ (قَارُونَ) وَازْدِرَاءَهُ لِعَامَّةِ النَّاسِ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مَوْسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]. وَقَدْ قُدِّمَتْ مَعَادِلَةٌ طَرَفَاهَا الْفِعْلُ "بَغَى" فِي الْآيَةِ وَالْفِعْلُ "فَرَحَ". فَكَلِمَةُ "فَرَحَ" هُنَا فِي الْأَصْلِ تَعْنِي الْفَرَحَ الشَّدِيدَ بِشَيْءٍ مَا. وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ كَلِمَةَ "بَغَى" تُشِيرُ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّ (قَارُونَ) اغْتَرَّ بِثَرَوَتِهِ وَمَمْتَلِكَاتِهِ، وَاغْتَرَّ بِقُوَّتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَذَكَرَ "الفساد" بِاعْتِبَارِهِ تَجَلِيًّا مَلْمُوسًا لِتِلْكَ الْحَالَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي وَصَفَتْ بِـ "البغي"^(١).

كَانَ سَبَبُ بَغْيِ (قَارُونَ) وَظَلَمِهِ أَنَّهُ حَصَلَ عَلَى ثَرَوَةٍ طَائِلَةٍ، وَبِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ الْوَعْيُ الْكَافِي وَالْإِيمَانُ الْقَوِي، فَإِنَّ هَذِهِ الثَّرَوَةَ الْكَبِيرَةَ خَدَعَتْهُ وَقَادَتْهُ إِلَى الْاِنْحِرَافِ وَالْاِسْتِكْبَارِ.^(٢) وَبِسَبَبِ كُنُوزِهِ وَثَرَوَاتِهِ الْكَثِيرَةِ، أَظْهَرَ قُوَّةَ وَتَفَاخُرَ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَعَدَّى عَلَيْهِمْ^(٣). وَقَدْ رَدَّ (قَارُونَ) بِغُرُورِهِ وَتَكَبُّرِهِ النَّاجِمَ عَنْ ثَرَوَتِهِ الْهَائِلَةِ عَلَى نُصْحِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَوْمِهِ قَائِلًا إِنَّهُ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الثَّرَوَةِ بِفَضْلِ عِلْمِهِ وَكِفَايَتِهِ. لِذَلِكَ، هُوَ حَرٌّ فِي إِتْفَاقِهَا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرَاهَا

١ - توشيهيكو إيزوتسو: مفاهيم اخلاقي ديني در قرآن مجيد [المفاهيم الخُلُقِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ]، ص ٢٩٥.

٢ - مكارم الشيرازي وآخرون، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٦، ص ١٥٣.

٣ - الفضل بن حسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤١٦.

مناسبة: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]. عدّ المفسرون العلم الذي ادّعاه (قارون) لنفسه عدّة أشياء: علم التوراة، وأنواع التجارة والزراعة وسائر المكاسب، وعلم الكيمياء^(١).

مهما كان هذا العلم، فقد كانت نتيجته أنّه قاد (قارون) إلى الغرور، وفي النهاية إلى الاستكبار، لدرجة أنّه عدّ جميع نعمه وثرواته ليست من الله بل من نفسه وكفاءته، وتفاخر واستكبر بتلك الثروة على الآخرين. في رؤية المستكبرين، تُقاس جميع القيم بمقياس الماديات، والمعيار الوحيد للحكم هو الثروة التي يُعدّ وجودها دليلاً على الحقّ، وعدم وجودها لا يدلّ على أيّ قيمة. لهذا السبب، يتباهون بامتلاك مزيد من الأموال والأولاد، ويرون ذلك علامة على كرامتهم الذاتية، بل ويعتقدون أنّ الله قد أكرمهم في هذه الدنيا لذلك سيحظون بمكانة مرموقة في الآخرة أيضاً: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتُهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

الفخر والتباهي بالامتيازات المادية وتصوّر انعدام العذاب الأخرويّ، هي سمة المستكبرين والمفسدين الاقتصاديين. كما يقول القرآن على لسان هذه الشخصيات: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

يرى المستكبرون أنفسهم بهذه الرؤية والفكر المادي أفضل من الآخرين ويحتقرون الجماهير المستضعفة. كما أنّ رؤية المستكبرين وحكمهم على المؤمنين من الطبقات المستضعفة في المجتمع تعتمد على أنّهم أراذل ومن الطبقات الدنيا، ويزعمون أيضاً أنّ الله

١ - محمود الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ٣، ص ٤٣١؛ رشيد الدين أحمد بن أبي سعد الميبدي: كشف الأسرار وعدّة الأبرار، ج ٧، ص ٣٤٦؛ أبو الفتوح حسين بن عليّ الرازي: روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١٦٩-١٧٠.

لم يمنح المحرومين والمستضعفين الخير والسعادة. لذلك ينبغي أن يُحتقروا، وهم يتوقَّعون مثل هذا التعامل من الأنبياء أيضًا. في الواقع، يُعدُّ الفقراء والمستضعفون في المجتمع، في الرؤية الظاهرية والسطحية لمن يعدُّ نفسه من الأشراف بشرًّا حقيرين ودينين ويستحقون الاحترار والإهانة. يتحدث القرآن الكريم عن مستكبري عصر نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

إحدى الطرق الشائعة والمتداولة لمواجهة المستكبرين لمعارضتهم هي الحصار الاقتصادي، ومثالها التاريخي حصار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحابه في شعب أبي طالب عليه السلام. يصف القرآن الكريم كلام المنافقين أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله كالآتي: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

ينبغي أن نعلم أنّ طريقة مواجهة الاستكبار الاقتصادي هي تقوية روح القناعة وعدم الاهتمام بالأثرياء: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

■ الاستكبار العلمي

بعض ممّن يصل إلى مراتب ودرجات علمية، وتتجدّد لديه حالة من الغرور جرّاء هذه المرتبة العلمية يندفع نحو هذا النوع من الاستكبار. (وبلعم بن باعوراء) هو الأنموذج البين لهذا النوع من الاستكبار. فقد كان عالماً في البداية ضمن صفوف المؤمنين، وحاملاً للآيات والعلوم الإلهية، لكنّه خرج عن هذا المسار، وانضمّ إلى الفراعنة والمستكبرين، وانتهى به الأمر إلى الضلال.

﴿وَإِذْ عَلَّمْنَا نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

تتحدث الآيات الأنفة الذكر عن عالم وباحث كان في البداية ماضيًا في طريق الحق، لدرجة أنه لم يتوقع أحد أن ينحرف يومًا ما، لكنّه في النهاية انحرف عن جادة الصواب بسبب حبّ الدنيا واتباع الهوى، وكذلك ميله إلى (فرعون) ووعوده، وفقد جميع مقاماته، وأصبح في صفّ الضالين واتباع الشيطان ومعارضى موسى عليه السلام. معنى "الانسلاخ" هو الخروج أو نزع أي شيء من جلده^(١). هذا التعبير هو كناية استعارية عن أنّ الآيات كانت متغلغلة في (بلعم بن باعوراء)، وكان ملازمًا للآيات كما يلزم الجلد الجسد، وبسبب خبثه الباطني خرج من جلده^(٢).

■ الاستكبار الإعلامي

قدّم السامريّ للبشرية، وهو شخصية تاريخية معروفة في قصة النبي موسى عليه السلام دينًا مصطنعًا مبتدعًا نتيجة لاستكباره العلميّ الدعائيّ، وكان قد تسبّب في تفرقة بني إسرائيل وضلالهم بعد الجهود المضنية التي بذلها النبيّ موسى عليه السلام. وقد وردت قصته في عدة آيات من القرآن الكريم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي* قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقْتَهُ ثُمَّ لَتُنْسِفَنَّ فِي السَّمِ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٥-٩٧].

ما هو مشهور ومعروف بين المفسرين، وبعض الروايات التي تتحدث عنه هو أنّ (السامريّ) أخذ من تراب ما تحت قدّم جبرائيل الذي ظهر على هيئة بشر لإغراق (فرعون)، ووضع ذلك

١ - حسين بن محمد الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، ص ٤١٩.

٢ - السيّد محمد حسين الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٣٣٢.

التراب في بطن العجل، فأصدر العجل صوتاً. وهكذا، خدع (السامريّ) الناس بأنّ هذا هو إله موسى (عليه السلام)، فأخذ الناس العجل وسجدوا له. وجه آخر لتفسير الآية هو أن المقصود بالرسول هو موسى (عليه السلام)، وأثره هو سنّته وطريقته وأوامره^(١).

على أيّ حال، هذه الأقوال التفسيرية هي في حدود الاحتمالات ولا تعود إلى نصّ معتبر و يقينيّ. المهمّ هو أنّ عمل (السامريّ) كان من نوع الصناعة، وبذكائه وعلمه الذي كان يمتلكه، صنع العجل بطريقة خاصّة، ومن خلال وسائل إعلاميّة ودعائيّة، حرّف الرأي العام للناس. حتّى أنّه حقّق نجاحاً في هذا الأمر، وألقى ما أراده في أفكار الناس وقلوبهم. في مقابل فعل السامريّ من تضليل للناس، تعامل موسى (عليه السلام) مع انحراف السامريّ بطريقتين: عزل (السامريّ) عن المجتمع؛ لأنّه كان أصل الفساد والفتنة، وتحطيم وتدمير العجل. فقد أحرق موسى (عليه السلام) العجل ورمى رماده في البحر ليقطع جذور الفتنة. لم يكن يريد أن يبقى منه أو من رماده ذرّة واحدة خشية أن يُقدّس في المستقبل من قبل الطغاة. ندرك من هذه الآية أنّه لا يكفي إزالة الطاغوت بل ينبغي اقتلاع جذوره وتدمير جميع آثاره ورموزه.^(٢) وهكذا، فقد حارب موسى (عليه السلام) في حياته ثلاث قوى طاغوتيّة مستكبرة: فرعون الذي كان رمزاً للاستكبار السياسيّ والقوّة والحكم، و(قارون) الذي كان رمزاً للاستكبار الاقتصاديّ والثروة، و(السامريّ) الذي كان رمزاً للاستكبار الإعلامي والصناعة والخداع والتضليل.

خاتمة

١ . الاستكبار في القرآن الكريم يأتي مصحوباً بكلمات مثل العتوّ، والعلوّ، والاستنكاف، والكفر، والظلم. بناءً على ذلك، يعدّ العتوّ، والاستنكاف، والكفر، والظلم نتيجة

١ - السيدة نصرت أمين: مخزن العرفان در تفسير قرآن [مخزن العرفان في تفسير القرآن]، ج ٨، ص ٢٠٣-٢٠٤.

٢ - تقيّ المدرسيّ: من هدى القرآن، ج ٧، ص ٢١٩.

للاستكبار.

٢. من خلال دراسة الكلمات المرتبطة بالاستكبار ومع الأخذ بالحسبان الآيات ذات الصلة، يمكن عدّ العلوّ والتفوّق هما الجذر والسبب للاستكبار.
٣. الاستكبار من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تسبّب تخلف المجتمعات واستضعاف الجماهير. إنّ كلمات الإيمان والتقوى والاستضعاف هي كلمات متضادّة لمفردة الكفر في القرآن الكريم، ويمكن القول إنّ عدم الإيمان بالله والأنبياء والمعاد وعدم التقوى يؤدي إلى الاستكبار، والاستكبار على المستوى الاجتماعي يؤدي إلى استضعاف الجماهير.
٤. الاستكبار الفردي يؤدي إلى الاستكبار الاجتماعي. وهذا يعني أنّ الاستكبار الذي هو في البداية حالة داخلية ناتجة عن الغرور، يؤدي إلى الاستكبار العبادي. الاستكبار العبادي بدوره يؤدي إلى ثلاثة أنواع أخرى من الاستكبار؛ وهي الاستكبار السياسي والاقتصادي والعلمي. وبالتالي، يمكن القول إنّ جذور جميع أنواع الاستكبار تكمن في استكبار العبد أمام الله والشعور بالاستغناء عن الذات الإلهية وتجاهل القدرة الإلهية.
٥. يرتبط كلّ من الاستكبار السياسي والاقتصادي والعلمي ببعضهم الآخر ويؤثر كلّ منهم في الآخر بتأثيرات متبادلة.
٦. تتداخل عوامل وأسباب مختلفة في نشأة الاستكبار. ومن هذه العوامل: المال والثروة الوفيرة، الأرستقراطية والرفاهية، القوّة العسكرية والمكانة السياسيّة-الاجتماعية، الفقر الثقافي وعدم الاستقلال الفكري للمستضعفين، والكفر، والتفوّق، وهوى النفس، والأنانية، والإثم، وكذلك الغفلة عن قدرة الله.
٧. لقد قدّم القرآن الكريم حلولاً لمواجهة أنواع الاستكبار المختلفة، ومن هذه الحلول: الثورة ضدّ المستكبرين السياسيين، وتعزيز روح الثقة بالنفس لدى أفراد

المجتمع، وتعزيز روح القناعة والاهتمام بالقيم السامية، وكذلك الخروج من إसार الأنانية وهوى النفس، وهي من طرق مواجهة الاستكبار السياسي والاقتصادي والثقافي.

٨. للاستكبار آثار ونتائج سلبية على الصعيد الفردي والاجتماعي والديني والأخروي. الحرمان من الرحمة والهداية الإلهية، وإضلال النفس والآخرين، وسوء العاقبة والوقوع في العذاب الديني والأخروي، جميعها من آثار الاستكبار وعواقبه.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- محمّد بن مكرم بن منظور: لسان العرب بيروت، دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ.ق.
- السيدة نصرت أمين: مخزن العرفان در تفسير قرآن [مخزن العرفان في تفسير القرآن]، طهران، نهضة النسوة المسلمات، ١٩٨٢.
- توشيهيكو إيزوتسو: مفاهيم اخلاقي ديني در قرآن مجيد [المفاهيم الخُلُقِيَّة الدينية في القرآن المجيد]، طهران، فروزان روز، ١٩٩٩م.
- عبد الله الجوادى الأملي: تسنيم، قم، دار إسراء للنشر، ٢٠١٠.
- أبو الفتوح حسين بن عليّ الرازيّ: روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، مشهد، مؤسّسة البحوث الإسلاميّة التابعة للعتبة الرضويّة المقدّسة، ١٤٠٨هـ.ق.
- فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي: مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ط ٣، ١٤٢٠هـ.ق.
- حسين بن محمّد الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، دمشق، الدار الشاميّة، ١٤١٢هـ.ق.
- محمود الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ط ٣، ١٤١٧هـ.ق.
- محمّد بن حبيب الله السبزواري النجفي: الجديد في تفسير القرآن المجيد، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٦هـ.ق.
- سيّد مهدي شهيدي: دلالة مفردة الاستكبار في القرآن الكريم حسب نظريّة إيزوتسو، فصلنامه معرفت [فصليّة المعرفة]، العدد ١٤٣، ٢٠٠٩.
- السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، قم: مكتب النشر الإسلاميّ

- العائد لجامعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم، ط ٥، ١٤١٧هـ.ق.
- الفضل بن الحسن الطبرسيّ: مجمع البيان في تفسير القرآن، طهران: ناصر خسرو، ط ٣، ١٩٩٣ م.
- أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ: جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار المعرفة، ط ١، ١٤١٢هـ.
- فخر الدين الطريحيّ: مجمع البحرين، طهران، مكتبة مرتضوي، ط ٣، ١٩٩٦ م.
- محمّد فؤاد عبد الباقيّ: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، قم، دار الحر للنشر، ط ١، ١٩٩٩ م.
- أبو هلال العسكريّ: معجم الفروق اللغوية، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٢هـ.ق.
- الخليل بن أحمد الفراهيديّ: كتاب العين، قم، هجرت، ط ٢، ١٤١٠هـ.ق.
- محمّد باقر المجلسيّ: بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.ق.
- سيّد محمّد تقيّ المدرسيّ: من هدى القرآن، طهران، دار الحسين، ط ١، ١٤١٩هـ.ق.
- حسن مصطفويّ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، طهران، مركز الترجمة ونشر الكتب، ١٩٨١ م.
- محمّد جواد مغنيّه: التفسير الكاشف، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٢٤هـ.ق.
- ناصر مكارم شيرازي وآخرون: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٩٩٥ م.
- رشيد الدين أحمد بن أبي سعد المييديّ: كشف الأسرار وعدّة الأبرار، طهران، دار نشر الأمير الكبير، ط ٥، ١٩٩٢ م.